بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

البحث في المثاقفة والتأثر والتأثير بين البلاغة العربية وسواها من بلاغات الأمم له مبرراته ودواعيه المشروعة، من نواح عدة .

هذا البحث يسعى إلى أن يضفي أبعادا هامة لتطوير البلاغة العربية ورَفدها بما يسهم في دفع عجلة تطويرها،لاسيما أن حس المقارنة في البلاغة العربية ظل مصاحبا لنشأتها عند علمائها المتقدمين كالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، الذي قارن بين بلاغة العرب في الخطابة وبلاغة سائر الأمم المعروفة في عصرهم، كاليونان والهنود والفرس. كما عمد هو وغيره من علماء العربية، كأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)،إلى نقل تعريفات الأمم الأخرى للبلاغة ومفاهيمهم حولها وقارنوها بالتعريفات والمفاهيم العربية.

ولم يزل الجدل محتدما حول صلة البلاغة العربية ببلاغة اليونان خاصة، ممثلة في كتابي الخطابة والشعر لأرسطو، اللذين ترجمهما إلى العربية (متى بن يونس ت ٣٢٨هـ).. وامتد هذا الجدل إلى عصرنا الحاضر، ممثلا في كتابات الدكتور طه حسين ، وغيره .

وفي الوقت الراهن تجسدت نتائج هذا الجدل القديم الجديد تحت مصطلح (البلاغة المقارنة) ، وتخصصت فيه(مجلة ألِف) ، عن الجامعة الأمريكية بمصر، ولو أنه لم يكتب لهذا المصطلح من الشيوع مثلما كتب لمصطلح (الأدب المقارن)، أو (النقد المقارن).

ومن هنا أحسست بحيوية هذا الجانب المتصل بالبحث البلاغي؛ وضرورة التنقيب في جوانبه وملابساته العلمية والحضارية الواسعة .

كما ازدادت أهمية هذه القضايا والبحوث العلمية والأدبية المقارنة في ظل التواشج الوثيق بين الحضارات العالمية المعاصرة، ،وأيضا بعدما اختصرت المسافات بتكنولوجيا الاتصالات والمواصلات، إذ لم تعد الحواجز الزمنية أو المكانية تشكل أدنى عائق بين علوم العرب وغيرهم؛ تأثرا وتأثيرا.

التمهيد

أولاً: العلاقة بين المثاقفة والمقارنة:

يمثل الجمع بين دراسات المثاقفة والمقارنة أنموذجا لمفهوم المقارنة في المدرسة الفرنسية التي لا تشترط وجود تأثر أو تأثير عند إجراء المقارنات، (بل يكفي دراسة التشابه والتوازي؛ بغضِّ النظر عن وجود صلة تاريخية، أو علاقة تأثر وتأثير فِعلية بينهما، أو بين عدة أعمال أدبية)[1].وعلي سبيل المثال فقد مثلت مجلة (ألف) وسيطا حيا لنقل قضايا نقدية وبلاغية وأدبية متشابهة أو متوازية، بلغات ثلاث، وهي العربية والإنجليزية، والفرنسية.

وقد صدرت ومازالت مجلة (ألِف) عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة،واختصت بمجال يالمثاقفة والمقارنة البلاغية معا.

ومن كبار النقاد المهتمين بهذا المجال من يحتج على هذا التوجه الفرنسي، المتساهل في التعاطي مع مفهوم المقارنة، ويذهب نحو تأييد المدرسة الأمريكية ، ومنهم الدكتور محمد غنيمي هلال، الذي يقول: (لا يُعد من الأدب المقارن في شيء ما تعقد من موازنات بين كُتّاب من آداب مختلفة لم تقم بينهم صلات تاريخية؛ حتى يؤثر أحدهم في الآخر نوعا من التأثير، أو يتأثر به)[2]. ومع أن هذا الكلام موجه للأدب لكن النقد والبلاغة معنيان بذلك أيضا؛ لأنهما نتيجة الأدب، وقد يكون الأدب ذاته نتيجة لهما؛ من جانب العلاقة التفاعلية العكسية... كما قد تعد الدراسات البلاغية والنقدية أدبا؛ إذا أخذنا بالرؤية القائلة بأن النقد ما هو إلا إعادة إنتاج للنص؛ فهي إبداع آخر له.

(١) علوم البلاغة عند العرب والفرس ١٦٣.

(٢) الأدب المقارن، د-محمد غنيمي هلال:١١.

وكلا المفهومين –الأمريكي والفرنسي– لنطاق الأدب المقارن وما يتصل به من النقد والبلاغة المقارنة؛ لهما ما يماثله من مقارنات البلاغيين القدماء؛ فهم يتحدثون أحيانا عن تأثر وتأثير، ويبدون متأثرين أو مؤثرين مع البلاغات الأخرى المعروفة في عصورهم، وهي اليونانية والرومانية والهندية والفارسية، وأحيانا لا يتعدى الأمر ذكر الرأي البلاغي الأجنبي في مقابل الرأي البلاغي العربي، وهذا ما نعده مثاقفة بالمفهوم المذكور آنفا.

وسأعتمد في بحثي هذا على منهج المدرسة الفرنسية، بسبب اتساع أُفقه، ولأنه حتى الإيراد والسرد المجردَ للآراء والدراسات البلاغية المتشابهة أو المتوازية بين أمتين أو ثقافتين، يبدأ أول ما يبدأ في صيغة مثاقفة فيصبح له تأثيره فيمن يقرأه ويدرسه، ثم يتحول الأمر نحو علاقة التأثر والتأثير، ومِن ثَمَّ تحل (المقارنة) بعد ذلك محل المثاقفة المجردة.

وعلى أساس هذا التصور للعلاقة الحتمية السببية بين المثاقفة والمقارنة لزمتني الكتابة عنهما معا ... وسنرى أن جميع الشواهد والوقائع التي الواردة في أحدهما تنتج مضامين تتعلق بالآخر.

وأما من ناحية الدراسات العربية السابقة في مجال هذا البحث؛ فهناك عدد قليل منها بحسب اطلاعي؛ ومِن ذلك كتاب قيم ومتميز، اختص بالمقارنة بين البلاغتين العربية والفارسية، وما بينهما من مثاقفة التأثر والتأثير، وهو كتاب (علوم البلاغة عند العرب والفرس، دراسة مقارنة) للدكتور إحسان صادق سعيد، وهو من منشورات قسم الدراسات الثقافية الإيرانية العربية في المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق.

وأما الكتب القديمة فقد كان أكثرها لصوقا من حيث عنوانه بهذا البحث كتابان؛ الأول كتاب (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم) لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (ت٣٨٢هـ)، والآخر كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) للإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ)، وفي الأول منهما ما يناسب البحث، من حيث مادته ومحتواه، وأما الثاني، وهو كتاب الوزير، فإن مناسبته لبحثنا هذا لا تعدوا إشارة العنوان إلى نوع من المقارنة الأسلوبية، وأما محتواه فينحو منحى آخر؛ وهو المقارنة بين أسلوب القرآن في إثبات العقائد، وأسلوب علماء الكلام والمنطق والفلسفة في ذلك.

ثانيا: إشكالية مصطلح (بلاغة مقارنة):

مصطلح (المقارنة) من حيث تعلقه بالبلاغة حديثٌ جدا، بل نادر الاستعمال بين النقاد والبلاغيين المعاصرين، لاسيما العرب.

وهذه الندرة لا تعني غياب المضامين المتعلقة بالبلاغة المقارنة، فهي موجودة ضمنيا، وبشكل متفرق، ومتداخل مع بحوث الأدب والنقد المقارنين؛ وقد رضخ عدد من الباحثين لهذا الواقع الذي يتجاهل استحقاق البلاغة لدرس مقارن خاص بها؛ فأدرجوا البحوث أو الآراء البلاغية المقارنة تحت مظلة مقارنات النقد أو الأدب، ومنهم محقق كتاب(التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم) الذي أشرت إليه في المقدمة، فقد سلك المحققُ الكتابَ في سلك الأدب المقارن، وعقد مبحثا بعنوان (موضوع الكتاب، وصلته بالأدب المقارن)[1] .

(١) مقدمة محقق (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم): ٨٧.

وللمحقق الفاضل مبرراته القوية في هذا التوجه؛ حيث إن العسكري –مؤلف الكتاب– (حين يذكر البلاغة ويتحدث عنها لا يريد بها البلاغة الاصطلاحية، التي تتمثل في القواعد والمصطلحات، بل يريد بلاغة التعبير وقوة البيان... ومن هذا المفهوم اعتمد على إيراد نماذج نثرية موجزة؛ تتوفر فيها مزية البلاغة، وحاول أن يعرضها في صورة متكافئة بين العرب والعجم)...[1]

ومن وجهة نظري ففي هذا الكتاب ما يتصل بالبلاغة –باعتبارها عِلما– اتصالا وثيقا؛ لاسيما ما يتعلق بمفهوم البلاغة وتعريفها عند الأمم؛ حيث أورد العسكري تعريفات للعرب، وأخرى للعجم، وقال: ...(ومما يدل على أن البلاغة مشتركة [يعني بين العرب وغيرهم] ما أخبرنا به أبو بكر بن دريد قال: قيل لليوناني :ما البلاغة؟ فقال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل لبعض الفرس: ما لبلاغة؟، فقال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لهندي: ما البلاغة؟؛ فقال:وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. وقيل لرومي: ما لبلاغة؟؛ فقال: ما فَهِمَته العامّة ورضيَته الخاصة)[2].

ولا شك أن تحرير (التعريف) يعد منطلقَ كل علم ومدار قواعده، ومن ذلك علم البلاغة، ومن هنا فلا يصح قول المحقق إن كل ما فيه "عبارة عن نماذج نثرية بليغة موجزة"... كما أن القدر القليل من الإشارات البلاغية في الكتاب كاف في الاعتداد بها؛ لأن طبيعة البدايات يلازمها غالبا عدم التركيز أو الاتساع في البحث، بل إن علما ضخما من العلوم قد يبدأ من شرارة عابرة انطلقت من مؤلف مغمور، ثم تبعها تشعيب المسائل والبحوث واستقلال شخصية هذا العلم.

(١) مقدمة محقق (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم): ٨٨.

(٢) التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم، لأبي أحمد العسكري: ١١٤.

فلذا أرى أنه من الجدير الحفاوةُ بكتاب أبي أحمد العسكري(ت٣٨٢هـ)، وأن نعده أول كتاب في (البلاغة المقارنة) العربية.. غير مغفلين لما سبقه من إشارات ومحاولات متفرقة في ثنايا الكتب؛ مثلما عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وابن دريد –شيخ أبي أحمد العسكري؛ مؤلف كتاب التفضيل، المذكور، وكانت وفاة ابن دريد سنة (ت٣٢١هـ) ، وغيرهما.

المبحث الأول

مسارات المثاقفة

مدخل:

سلكَت المثاقفة البلاغية المأثورة مسارات عديدة، منها ما هو تنظيري ومنها ما هو تطبيقي، كما شملت التقعيد و الاستشهاد و التقسيم والتفريع والتعريف، وهناك مقارنات تقع خارج النص الأدبي، ومنها المقارنة بين مستويات بلغاء اللغات وخصائصهم النفسية والعلمية.. إلى غير ذلك مما ستكشف عنه الصفحات التالية من بحثنا.

أولا: المثاقفة في مجال تعريفات البلاغة :

من الطبيعي أن يكون الشائع –في أول الأمر– من المقارنات النظرية هو ما يتعلق بتعريف البلاغة، إما باعتبارها علما وفنا قائما بذاته، أو باعتبارها سلوكا في الكلام والخطاب وصفةً في المتكلم؛ حيث ينشر العالِم من علماء البلاغة ومؤلفيها في كتابه ما يقع تحت يده من تعريفات الأمم لهذا الفن، أو العِلم، جنبا إلى جنب مع تعريفات العرب، ويتجلى هذا المسار بوضوح عند كل من الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وأبي أحمد العسكري (ت ٣٨٢هـ) وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، وابن الأثير (ت٦٣٧هـ) وغيرهم.

وقد مرت الإشارة إلى ما نقله أبو أحمد العسكري عن شيخه ابن دريد (ت٣٢١هـ)، من تعريفات العجم؛ الفرس واليونان والهنود.

ثم توسع تلميذه من بعده أبو هلال العسكري في هذا المسار، فأربى على ما ذكره أستاذه أبو أحمد العسكري وزاد في تفصيله وشرحه، بما يشغل عشرات

الصفحات التي افتتح بها كتابه (الصناعتين)... ولم أجد في المتقدمين من يوازي أبا هلال العسكري أو يقاربه في مقدار الانفتاح والتقبل والمقارنة، في مجالات البلاغة، ومن هنا جاء كتابه ثريا متميزا عن غيره من كتب سابقيه ومعاصريه.

لقد انطلق أبو هلال من هذه المقارنات البلاغية ليتخذ من تفاصيلها قاعدة للكشف عن وجوه البلاغة في كلام العرب، وللكشف عن إشارات كلام العرب الدالة على نظائر المضامين والشروط التي تضمنتها تعريفات البلاغة عند الأمم الأخرى. وقد شغل بعضٌ منها ما يزيد على عشرين صفحة متتالية من كتابه، كالذي نجده في شرحه لتعريف البلاغة عند من سماه(حكيم الهند)، مجتلبا لهذا الشرحكل ما استطاع أن يوضحه به من كلام العرب وأشعارهم .

ومِثل هذا التفصيل لم يكن معهودا في كتب السابقين على أبي هلال، ولا يجاريه أي منها في العمق والثراء ودقة التخصص.ولا حتى ما كتبه الجاحظ في هذا الشأن، كما هو واضح من المراجعة لما كتبه في البيان والتبيين أو غيره من مؤلفاته.

وقد جرت العادة عند هؤلاء البلاغيين على إتْباع التعريف الأعجمي بالتعريف العربي، وكأن ما ينقلونه عن العرب يحتل منزلة الشرح للتعريف الأعجمي، أو بمثابة الإثبات والاستدلال على معرفة العرب بمضامين التعريفات المنقولة عن الفرس أو اليونان أو الرومان أو الهنود.

ويُستشف من طريقتهم هذه إضمارُ النية لبث فكرة صالحة عن العرب في نفوس مناوئيهم من الشعوبيين وغيرهم، ومضمون تلك الفكرة هو إثبات أن للعرب قواعدهم البلاغية ومفاهيمهم النقدية المتعلقة بفنهم الأكبر وعِلمهم الأشهر؛ وهو الشعر، حتى وإن كانت قواعد مضمرة في النفوس؛ لم يضمها كتاب مؤلَّف، أو

يُبديها قول معلَن؛ فالجاحظ يذكر عنهم (المذهب) و(عمود الشعر) وأشباهها من المصطلحات الدالة على الوعي بفن الشعر وبلاغته، فمن ذلك قوله: (وإنما هو أن يصرف [يعني الشاعر والخطيب العربي] وهمه إلى جُملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً)[1].

إلا أن هذا المسار الأسبق في المقارنات البلاغية ترد عليه -برغم أهميته- ملاحظات عديدة، ومن أهمهما محدودية نطاق التفكير والتصور لمتطلبات تعريف البلاغة عند العرب القدماء، يتضح ذلك بمقارنة المنقول عن العرب بالمنقول عن الأمم الأخرى في هذا الشأن. مع أن ذلك لا يدل -ضرورةً- على محدودية الإبداع العربي؛ لعلمنا بأن وضع القاعدة قد يتخلَّف في زمانه وفي نضجه عن زمان معرفتها واستعمالها.

فقد كان العرب القدماء يشعرون جيدا بما هو واجب عليهم من لوازم الشعر ومقتضيات الإبداع والبلاغة، ولكن ظرفهم الحضاري والعلمي لم يسعفهم عندما أرادوا التعبير عن تلك القيم البلاغية المختزنة في عقولهم وإن تجلت بأبهى صورة في آدابهم التي أسسوها على البداهة والارتجال؛ إنْ في الخطب أوفي القصائد... وهي الخاصية التي فاقوا فيها أمما أخرى؛ أي خاصية البلاغة الارتجالية.

وفكرة (البداهة) وتميُّز العرب بها في بلاغتهم كانت إحدى الأفكار الكبرى التي أشاد بها الجاحظ في صدد تعريفه للبلاغة، وسيأتي مزيد من البيان والتفصيل لما يتعلق ببحثنا هذا من صلة البداهة بالبلاغة.

والملاحظة الثانية على هذا المسار المقارِن التراثي أن معظم التعريفات العربية للبلاغة جاءت موجزة ومختصرة إذا ما قورنت بالتعريفات الأعجمية.

(١) البيان والتبيين : ٢/٢٩.

كما تركز معظم اهتمام العرب فيها حول ثلاثة عناصر في التعريفات لا تكاد تتجاوزها؛ هي (الإيجاز،والوضوح، والبداهة)، كما في جملة التعريفات التي أوردها أبو هلال في الصناعتين: (وذلك مثل ما روي عن معاوية أنه قال لصحار العبدي: ما البلاغة؟؛ فقال: أن تقول فلا تخطئ، وتسرع فلا تبطئ. ثمن قال: أقِلني!؛ هو: أن لا تخطئ ولا تبطئ)[1]. وفي موضع آخر من الكتاب قال أبو هلال: (وقال بعض الحكماء: البلاغة قول يسيرٌ يشتمل على معنى خطير. وهذا مثل قول الآخر: البلاغة حكمة تحت قول وجيز. وقول الآخر: البلاغة عِلم كثير في قول يسير)[2].

بينما تأتي التعريفات الأعجمية مطولة ومفصلة ومتنوعة المحتوى والاشتراطات؛ غالبا، ومنها قول بعض بلغاء الهند، فيما نقله أبو هلال العسكري أيضا في الصناعتين: (جِماع البلاغة: البصر بالحجة، والمعرفة بمواقع الفرصة، ومن البصر بالحجة إن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها؛ إذا كان طريق الإفصاح وعرا، وكانت الكناية أحضَرَ نفْعا)[3].

وهذا التعريف مع ما فيه من التفاصيل التي لم يحظ أي من التعاريف العربية القديمة بمثله، ليس إلا مقطعا قصيرا مقارنة -على سبيل المثال- بالتعريف الآخر الذي نقله أيضا أبو هلال عن الهنود ؛ وجاء فيه: (وقال حكيم الهند: أولُ البلاغة: اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخير اللفظ، لا يُكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في

(١) الصناعتين: ٣٢.
(٢) الصناعتين: ٣٧.
(٣) الصناعتين:١٥.

قُواه التصرف في كل طبقة، ولا يدقق في المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ويُصفيها كل التصفية ويهذبها كل التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما ، وفيلسوفا عظيما، ومَن تعود حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، ونظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة فيها؛ لا على جهة الاستطراف والتطرف لها. قال [يعني حكيم الهند]: واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طِبقا وتلك الحال له وِفقا، ولا يكون الاسم فاضلا، ولا مقصرا، ولا مشتركا، ولا مُضمَّنا، ويكون تصفحه لمصادر كلامه بقدر تصفحه لموارده، ويكون لفظه مُوْنِقاً، ومعناه نيرا واضحا. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم، وأن تواتيه آلته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التُّهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا؛ فإنه إنْ تجاوز الحق في مقدار حُسن الظن أَودعها تهاون الآمنين، وإن تجاوز بها مقدار الحق في التهمة ظلمها وأودعها ذلّ المظلومين، ولكل ذلك مقدار من الشُّغل ولكل شُغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل)[1].

هذا التعريف الهندي المطول للبلاغة يغوص في أعماق النفس والكلام؛ معاً، ويقدم تحليلات تفصيلية فيهما، مبنية على دقة الملاحظة والتتبع والاستقراء.

وبنحو هذه القدر من التركيز والاهتمام عرض أبو هلال العسكري تعريفات مترجمة عن الأمم الأخرى، وقد تقع في جمل معدودة، لكنه بسبب احتوائها على ما لم تحوِ عليه التعريفات العربية من الإضافات والشروط والتلميحات– فقد كان يفسح لها صفحات متعددة من كتابه، فيثريه بها ويثريها بالشرح والتفصيل والمقارنة بما

(١) الصناعتين: ٢٠.

عند العرب من النظائر والمشابهات لبعض تفاصيلها، كما فعل مع تعريف أحد علماء الروم للبلاغة، بأنها: (حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة عند الإطالة)[١].

ولو أمكننا اعتبار المنقول عن المولدين-أي ذوي الأصول غير العربية- من تعريفات البلاغة نوعا من المثاقفة في هذا المجال، وأنه مما يصلح مادة للمقارنة، فسنجد أنه أُثر عنهم تعريفات خاصة، أَخذت -أيضا- طابع التعريفات المترجمة من حيث التعمق في تحليل بنية البلاغة ومكوناتها، ومن هنا كان نصيبها من العناية مقاربا لنصيب المترجم أصلا عن اليونان والرومان والهنود والفرس.

وقد احتفى أبو هلال بتعريفات المولَّدين أيضا، لا لشيء إلا لكونها جديرة بذلك، كتعريف ابن المقفع، وجعفر بن يحيى البرمكي لها[٢].فقد استفتح أبو هلال الفصل الثالث من كتابه، وهو المعقود (للقول فيما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة) بتعريف ابن المقفع، الذي -على حد وصفه-(لم يفسر أحدٌ البلاغة تفسيرَه)، وهو قوله: (البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون خطبا، وربما كانت رسائل فعامَّة ما يكون من هذه الأبواب فالوحيُ فيها والإشارةُ إلى المعنى أبلغ. والإيجاز هو البلاغة)[٣].

ثانياً:المثاقفة في مجال القواعد البلاغية وتفاصيلها:

(١) الصناعتين:٣٩.

(٢) ينظر: الصناعتين: ٤٢.

(٣) الصناعتين: ١٤.

الكلام السابق تعلق بجانب تعريف البلاغة ومفهومها من وجهة نظرية بحته، وهو الجانب الذي يمثل أكثر المقارنات (الصريحة) شيوعا عند قدماء البلاغيين العرب.

بينما سنقف الآن مع مقارنات أوسع أفقا، لكنها (ضمنية) غالبا ، وهي تمثل تأثرا وتأثيرا واسع الطيف، وسنرى كيف أن العرب كما كانوا متأثرين، فقد صاروا مؤثرين في بلاغات الأمم، فيما بعد.

فأما تأثر البلاغيين العرب بالعجم: فقد جاء على رأسه تأثرهم بكتابي (الخطابة)، و(الشعر) لأرسطو (عاش حتى ٣٢٢ ق.م) ، بعد أن تم نقل الكتابين إلى العربية في أواخر القرن الثالث الهجري١. وستظهر آثار التأثر بهما –بوضوح– في جانبي المنهج والمحتوى عند عدد من البلاغيين المتأخرين، لاسيما عند حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، في (منهاج البلغاء)، ثم عند ابن البناء (ت٧٢١هـ)، في كتابه (الروض المريع في صناعة البديع)، ثم عند السجلماسي (توفي أوائل القرن الثامن الهجري) في كتابه (المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع).

وعلى الرغم من المعركة الدائرة والجدل القائم حول تحديد مقدار التأثر البلاغي العربي بكتب أرسطو، إلا أن مما يمكن الاطمئنان إليه أن كتب أرسطو لم تكن السبب في وجود البلاغة العربية ولا في إنضاجها، فإن عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) ، و (أسرار البلاغة) لم يكن تلميذا لأرسطو لا من قريب ولا من بعيد، بل كان تلميذ لغويي العربية وبلاغييها ونقادها المعروفين، وكان يصرح بأسمائهم وينسب إلى أقوالهم وآرائهم، ولم يكن أرسطو من بين ذلك الجمع.

(١) ينظر: مقدمة عبد الرحمن بدوي للترجمة القديمة لكتاب الخطابة، لأرسطو: ٣.

فإذاً لا يكون أرسطو هو المعلم الأول للعرب والمسلمين في البلاغة ، خلافا لما ادعاه الدكتور طه حسين[1].. ذلك أن استفادة البلاغيين العرب المتقدمين من أرسطو لا تخرج عن نطاق استفادتهم من الهندي والروماني والفارسي في تعريف البلاغة، على النحو والمستوى الذي تصورناه في المبحث السابق، أي باعتبارها منطلقات وإشارات أولية، تلاها سيل من المقالات والإيضاحات والابتكارات العربية الأصيلة في البلاغة وقضاياها.

فالأمر في عهده الأول –عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، والحسن بن وهب (ت ٢٥٥هـ)،وقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، وأبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، وأمثالهم – لا يعدو مستوى التأثر الطبيعي العام بين الحضارات الإنسانية التي يرث بعضها من بعض، واستمرت الحال على هذا المنوال من التأثر حتى بدايات القرن السابع الهجري.

وأما في أواسط القرن السابع الهجري ونهاياته وما بعده فقد ظهرت الآثار القوية لأرسطو والبلاغة اليونانية في البلاغيين العرب، لا سيما عند حازم، وابن البناء، والسجلماسي... حيث يعد حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) (أول من أدخل نظريات أرسطو وتعرّض لتطبيقها في كتب البلاغة العربية الخالصة)[2]. وذلك في كتابه (منهاج الأدباء وسراج البلغاء).

كما يعد تأثر البلاغيين العرب بالبلاغيين الفرس مجالا للمقارنة في هذا المستوى الأكثر تطورا، ابتداء من كتاب (حدائق السحر) لرشيد الدين الوطواط

(١) ينظر كلام طه حسين في ص ٣٢ من البحث المضمن في مقدمة كتاب (نقد النثر، لقدامة ابن جعفر)، ترجم كلمة طه حسين عن أصلها الفرنسي: عبد الحميد العبادي.

(٢) إلى طه حسين، تأليف أشراف بدوي: ٨٧.

(ت٥٧٣هـ) وهو -كما يقول الدكتور إحسان صادق سعيد- (الكتاب الوحيد [يعني من كُتب الفُرس] الذي خلّف آثره في البلاغة العربية، ولا غرو في الأمر فقد ذهب صيت مؤلفه بين الناس، ولم يتأت لأي من مؤلفي البلاغة الفارسية شهرة كشهرته، ولا ما هو قريب منها؛ هذه واحدة، والأخرى أن الوطواط لم يقتصر في أمثلته على الأمثلة الفارسية، بل زاوج بينها وبين العربية... فظهرت لـ "حدائق السحر" آثار في مجموعة من مؤلفاتهم)[1]؛أي مؤلفات بلاغيي العرب.

على أننا سنعرف بعد قليل أن جزءا لا يستهان به من مضامين البلاغة في كتاب رشيد الدين الوطواط مستمد -أصلا- من الكتب العربية، فبقي الفضل للعرب على الفرس في البلاغة أكبر من عكسه.

ومن بلاغيي العربية المتأثرين برشيد الدين الوطواط فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" ، إلا أنه لم يصل الأمر لحد ما قيل عن الفخر: (وكل ما له أنه استخدم في كتابه بعض فنون البديع المعروفة، وكان مرجعه الأول فيها كتاب "حدائق السحر في دقائق الشعر، للوطواط")٢ففي هذا القول كثير من المجازفة والتسرع في الحكم...

والذي أراه أن كتاب نهاية الإيجاز تلخيص وَفيٌّ مُتقن لكتابي عبد القاهر الجرجاني في البلاغة. يتضح ذلك بالمراجعة والمقارنة، كما يتضح من تصريح الرازي نفسه بأنه أطال النظر في كتابي عبد القاهر، وهما مرجعه ومستزاده، فهو واضع العلم وأستاذه، كما قال الرازي، وأضاف: (ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين، التقطت منهما معاً فوائدهما ومقاصد فوائدهما، وراعيت الترتيب مع

(١) علوم البلاغة عند العرب والفرس: ٢١٤.

(٢) علم البديع، الدكتور عبد العزيز عتيق: ٢٧٦.

التهذيب، والتحرير مع التقرير، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية)[١].

ومع ذلك يعد ما بين كتابي الرازي والوطواط من علاقة المثاقفة مجالا للمقارنة البلاغية في طيفها الواسع الذي يشمل المباحث المشتركة، والشواهد المتطابقة، والآراء التي نقلها الرازي عن الوطواط، (وهي ليست كثيرة في نهاية الإيجاز، بيد أن منها ما يكاد يكون ترجمة حرفية لما ورد في "حدائق السحر")[٢].

وممن رجح الباحثون تأثرهم بالوطواط، أبو يعقوب السكاكي (ت٦٢٦هـ)،إلا أن تأثره به يحتمل أن يكون مباشرا، ويحتمل أن يكون بواسطة فخر الدين الرازي، وهو الأحرى، حيث –كما يقول الدكتور أحمد مطلوب في دراسته المخصصة عن السكاكي– (لا يمكن الجزم بأن السكاكي نقل عن "حدائق السحر في دقائق الشعر" مباشرةً)[٣].

وممن تأثر بالوطواط زين الدين الرازي (ت٦٦٦هـ) في كتابه "روضة الفصاحة"، (وقد يكون هذا الكتاب أكثر كتب البلاغة العربية إفادة من كتاب الوطواط، وهي إفادة مباشرة، نظرا لاشتمال الكتاب على كثير مما في "حدائق السحر"، مما لم يرد في "نهاية الإيجاز")[٤]، وقد شمل ذلك التأثر أمورا جوهرية تتعلق بالموضوعات، والتقسيمات، والآراء، والتعليقات، والشواهد والأمثلة، بل كان منها أشعار للوطواط ذاته، وقد بلغ ما نقله منها زين الدين ثلاثة عشر شاهدا

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين الرازي: ٥١.
(٢) علوم البلاغة عند العرب والفرس: ٢٢٠.
(٣) البلاغة عند السكاكي، الدكتور أحمد مطلوب: ٢٢٤ .
(٤) علوم البلاغة عند العرب والفرس: ٢٢٤.

شعريا من نظم الوطواط نفسه، وبعض هذه الأشعار تناقله بلاغيون عرب آخرون فيما بعد، والأرجح أن مصدرهم فيها الرَّازِيان؛ أي هو نقلٌ عبر الوساطة، وليس من كتاب الوطواط ذاته...

وإضافة إلى زين الدين الرازي فإن من البلاغيين العرب المتأثرين بالوطواط -كما يثبت الدكتور/ إحسان صادق سعيد- بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ)،ومحمد بن علي الجرجاني (ت٧٢٩هـ)، والخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، والعلوي (ت٧٤٩هـ)، وعضد الدين الأيجي (٧٥٦هـ)، وابن معصوم المدني (ت١١٢٠هـ)[١].

وأما في جانب تأثير البلاغيين العرب في العجم: فهذا باب واسع من أبواب المقارنة، ويتجلى بوضوح في البلاغة الفارسية قديما، ثم في البلاغات والآداب اللاتينية التي اتصلت بالأدب العربي في عصور ازدهار الأمة، كالأدب الإسباني، والأدب الإيطالي، والأدب الفرنسي، والأدب البرتغالي[٢].

أي أن العرب تحولوا إلى أمة مؤثرة بقوة في بلاغات الأمم الأخرى، وذلك بعدما استقلت شخصيتهم العلمية البلاغية وصارت لهم مدوناتهم وعلماؤهم في هذا الفن وما يتصل به.

وربما كان هذا شاهدا على مزية في العقلية العربية التي لا يتطلب منها الأمر سوى اليسير من الزمن حتى تأخذ زمام المبادرة في المجال الذي كانت تابعة فيه لغيرها.

ويُعد تأثر الفرس بالعرب في البلاغة ميدانا كبيرا للدرس المقارن، وأبحاث المثاقفة بين الشعوب، وذلك من جهتي التنوع والوفرة، حيث استنار عدد كبير

(١) ينظر : علوم البلاغة عند العرب والفرس: ٢٢٤-٢٣١.

(٢) ينظر: مقدمة محقق (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم): ٨٦.

أمهات الكتب البلاغية الفارسية بالبلاغيين العرب، و (كثيرة هي المصادر البلاغية والأدبية العربية التي كانت لها تأثيراتها في المصادر البلاغية الفارسية، لكن يَنمازُ من بين تلكم المصادر العربية مصدر كان له –على قِلة خطره وأهميته في ذاته– من التأثير ما لم يكن لغيره... وهو "محاسن الكلام" للمرغيناني)[١] ، وهو من علماء القرن الخامس الهجري، وقد أثر في البلاغيين الفرس، لاسيما في الرادوياني الذي عاش في منتصف القرن الخامس الهجري، وفي رشيد الدين الوطواط (ت٥٧٣ هـ)، تأثير قويا... إلى جانب تأثُّرِهم بآخرين من بلاغيي العربية، كالجاحظ والرماني وابن المعتز[٢].

ومن المصادر العربية المؤثرة في الفارسية كتاب (المطول، شرح تلخيص المفتاح، للتفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، فقد تأثر به كثيرون؛ ومنهم المازنداني الفارسي (ت١١٢٠هـ) في كتابه (أنوار البلاغة)، وهو (أول كتاب في تاريخ البلاغة الفارسية تصنف مباحثه إلى العلوم الثلاثة؛ أي المعاني ، والبيان، والبديع. ولن نجد في الأمر غرابة متى ما لاحظنا أن المازنداني قد استهدى في كتابه المحققَ التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، إلى درجة كبيرة؛ حتى وُصف "أنوار البلاغة" بأنه ترجمة فارسية للمطول، أو للمختصر)[٣].

ثالثا: المثاقفات في مجال التطبيقات البلاغية:

ونقصد بها ما يقع في نطاق الإبداع والإنتاج الأدبي عند الفريقين؛ سواء على مستوى الفنون الكاملة، كتأثر الفرس بالعرب في فن المقامات، أو في مستوى

(١)علوم البلاغة عند العرب والفرس: ١٦٥.

(٢) ينظر: علوم البلاغة عند العرب والفرس:١٦٥ و ١٧٠.

(٣) علوم البلاغة عند العرب والفرس: ١٤٤.

الشواهد والأقوال والجمل البديعة البليغة، وقد سبقت الإشارة إلى بلاغيين عربا متأخرين تأثروا بشواهد من شعر رشيد الدين الوطواط، التي ضمنها كتابه (حدائق السحر في دقائق الشعر)، وذكرت منهم زينالدينالرازي (ت٦٦٦هـ).

ومن الملاحظ أن الالتفات لهذا المستوى من البلاغة المقارنة جاء قديما قِدم المؤلفات العربية المعنية بالإبداع وصوره وقواعده، شاملةلمؤلفات الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وأبي هلال العسكري (ت٣٧٥هـ)، وأبي أحمد العسكري (ت٣٨٢هـ): الذي قال في كتابه (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم):

(وأبيات الشعر كَثَّرت أمثال العرب وزادت على أمثال سائر الأمم، وإن كان في غير العرب الشعرُ أيضا على قديم الوقت، فللفرس أشعار لا تُضبط كثرةً، ولليونان أشعار دون الفرس، وكان أفلاطون بعض من يقول الشعر. فأما الفرس ففي منثور أخبارهم وذكر حروبهم أشعارٌ كانت تدون وتُخلد في الخزائن التي كانت بيوت الحكمة، ثم درس أكثرها مع ما درس من كلامهم، وبقي من أشعار العرب السوائر من الأمثال تجري على أفواه أهل زمانهم)[1].

وينوه أبو أحمد العسكري بأربعة عشر ألف مَثَل حُفظت عن العرب، ويجعل ذلك أساسا لمقارنة بلاغية؛ نتيجتُها هي (تفرُّد العرب من بين الأمم بكثرة الأمثال)[2]. وفي هذه النتيجة -كما لايخفى- تسرع ورجم بالغيب؛ لأن أبا أحمد نفسه قال آنفا: (للفرس أشعار لا تضبط كثرة)، وأنها درست مع ما اندرس من تراثهم... فإذا كان ذلك كذلك فكيف يستقيم الحكم على تراث اندرس؟!... وعلى كل

(١) التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم: ١٢٨.

(٢) التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم: ١٢٩.

حال فكلامه هذا يمثل صورة متقدمة من صور المقارنات البلاغية والأدبية في ميدان النصوص والإبداع البليغ.

على أنه ثمة علماء وأدباء آخرون عربا وموالي استرعى انتباههم قوة بلاغة العجم، وحكمتهم، فاعتنوا بها في صور شتى من صور العناية، فخلدوا من أمثال العجم مثلما خلدوه من أمثال العرب، كما هي الحال عند شاعر الحكمة العباسي، صالح بن عبد القدوس، فقد اجتمع في ديوانه -كما قيل[1]- (ألف مثل للعرب، وألف مثل للعجم).

وبالعودة إلى صنيع أبي أحمد العسكري نجد أنه توسع في المقارنة بين بلاغات الأمم، حين جزم بأن (لليونان أشعار دون الفرس)... وهذا يعكس اهتماما متناميا -آنذاك- بأهمية المقارنة، وعالمية الأدب والبلاغة... بغض النظر عن مقدار الصحة والدقة في هذه الحكم.

وقد ترتب على هذا النوع من المقارنة-أي مقارنة محتوى اللغات من الحكمة والأمثال البليغة- نوع آخر من المقارنة، ويتمثل في الغوص وراء بعض معاني الشعراء العرب؛ من أجل اكتشاف -أو فضح- مصادرها الأعجمية الأولى، مثل اليونانية والرومانية والهندية والفارسية؛ كصنيع أبي حاتم (ت٣٨٨هـ) في (الرسالة الحاتمية) التي صنعها ليثبت(موافقة شعر المتنبي لفلسفة أرسطو).

ذلك التلاقي والتلاقح (أو التناص) أو ما بحثه البلاغيون تحت باب (السرقات الشعرية)- لم يكن عيبا على إطلاقه عند كل النقاد والبلاغيين؛ من أمثال أبي هلال العسكري الذي نستشف له رؤيته المنفتحة من خلال تفسيره لما سُمي (حسن الأخْذ) حيث قال: (ليس لأحد من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني

(١) التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم: ١٢٩.

ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم)، ثم زاد عبارة تدل على انفتاح الرؤية والإفساح للمثاقفة الواعية؛ حتى لو كانت مع عامي زنجي أو نبطي، إذا وُفق أي منهم لما يستحق الاحتفاء به وأخذه وإعادة تركيبه وصياغته بعبارة أكثر جمالا وأبلغ دلالة، قال: (المعنى الجيد ربما وقع للسوقي والنبطي والزنجي)[1].

وقد تكررت عناية أبي هلال بهذه المقارنات، إذ عقد فصولا في كتابه (ديوان المعاني)عن بلاغة العجم ، ومنها فصل بعنوان (جملة من بلاغة العجم)، وآخر بعنوان (من كلام الفلاسفة). وقد جاء في الأول منهما كلام بالغ الجرأة؛ قال فيه: (العجم والعرب في البلاغة سواء؛ فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأول)[2].

واستدل لهذا الحكم بحال عبد الحميد الكاتب؛ الذي -كما قال عنه- (استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوّلها إلى اللسان العربي).

كما استدل بواقع ما تُرجم من خطب الفرس ورسائلهم التي وَجدها (على نمط خطب العرب ورسائلها)، وأضاف: (وللفرس أمثال مِثل أمثال العرب معنىً وصنعةً).

(١) الصناعتين: ١٩٦.

(٢) ديوان المعاني، لأبي الحسن العسكري: ٢/٨٩-٩٠.

ثم بلغ الذروة في هذه المقارنة وفيما ضمنها من أحكامه الصريحة ، إذ قال: (وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي ، من ذلك قول العرب "ولدك من دمي عقبيك")... إلى أخر كلامه[١].

وقد كان أبو أحمد العسكري –وهو أستاذ أبي الحسن العسكري– مؤسسا لهذا التوجه في التماس وجوه التأثر والتأثير في الإبداع البليغ، بين الأمم ، وجعل هذا منهجا لكتابه (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم)، بل كان سببا لتأليفه له، إذ يقول: (وسأذكر هاهنا صدرا من الفصول القصار من كلام العرب وغيرهم مما يتضمن الفِقر المختارة، والمعاني المجموعة باللفظ القليل)[٢].

وقد أكدت الدراسات الحديثة وجود هذا النوع من المثاقفة بين العرب وغيرهم، بما يشمل ثقافات ولغات أخرى إلى جانب الفارسية، ومنها الأسبانية، حيث أثبتت دراسة الأستاذ الدكتور محمد محمد بن شريفة:(التأثير المتبادل بين الأمثال العربية والأمثال الأسبانية) و كان بن شريفة قدم لدراسته بقوله: (تَجَمَّع لدينا من الأمثال الإسبانية التي تتفق أو تتشابه في الصيغة والمعنى مع الأمثال العربية ما يزيد على مئتي مَثل)[٣].

(١)ديوان المعاني، لأبي الحسن العسكري: ٢/٨٩–٩٠.

(٢) التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم: ١٣٦.

(٣) بحث (التأثير المتبادل بين الأمثال العربية والأمثال الأسبانية) ، أ. د. بنشريفة: نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة / ع ٩٥ ، ص: ١٩٢.

المبحث الثاني
اشتراطات المقارنة

مدخل:

لقد كان المتقدمون من علماء اللغة والبلاغة العرب على معرفة بأصول المقارنات مع اللغات الأخرى واشتراطاتها؛سواء في ميدان البلاغة أو النقد. وتتضح جوانب هامة من هذه المعرفة بتحليل هذه المحاورة التي دارت بين أبي حيان التوحيدي (ت٤١٥هـ)، وأستاذه أبي سليمان المنطقي، وجاء فيها:

(فقلت لأبي سليمان: فهل بلاغةُ أحسن من بلاغة العرب؟!.

فقال: هذا لا يَبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحِذق؛ ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها؛ حتى نأتي على آخرها وأقصاها؛ ثم نحكم بينها حكما بريئا من الهوى والتقليد والعصبية والمَين[1] فهذا الجزء من كلام أبي سليمان يُجلي عن شرطين للمقارنة البلاغية العلمية السليمة؛ وهما:

الأول: المعرفة والعلم التامان بلغات البلاغات المقارَن فيما بينها مع المهارة في فنون التعبير بها،والمعرف التامة بكل ما يميز إحداهما عن الأخرى من خصائص التعبير ودقائق الأساليب ، أي أن يكون ذلك الاطلاع على قدم المساواة وبمستوى واحد من الإجادة والفهم والحذق في لغات البلاغات المقارنة.

والثاني: العدل والإنصاف والبراءة من التقليد والتعصب والانحياز..

ثم بدا أن أبا سليمان المنطقي استصعب تحقق هذين الشرطين فأدرجهما في المستحيل؛ وقال: (وهذا ما يطمع فيه إلا ذو عاهةٍ!)؛ وربما كان ذلك كذلك ليقين أبي سليمان بأمرين؛ الأول: أن إتقان اللغة يقتضي صرف العمر والاهتمامِ في

(١) المقابسات، لأبي حيان: ١٨٥-١٨٦.

لغةٍ بنحو متساو مع الأخرى. والثاني: أن الحياد التام متعذر؛ والنفس بطبيعتها تعاكسه.. لا سيما في ظل التفوق الحضاري والثقافي الذي كانت الأمة العربية والإسلامية تستشعره في أيام أبي سليمان. ومع ذلك فالظاهر أن هذا العالم الفاضل كان مثاليا في تطلباته ومبالغا في تخوفاته واحتياطاته؛ فالمسألة نسبية أساسا، ولعل عقليته المنطقية تطلبت منه هذا القدر الزائد من التدقيق في الاشتراط ، فهو (أبو سليمان المنطقي).

وبناء على وجوب النظرة النسبية –التي يفرضها الواقع–رجع أبو سليمان فسمح لنفسه بالمقارنة التي سأله عنها تلميذه أبو حيان، معتمدا فيها على التقريب والافتراض والتعميم النسبي، لا على الجزم والقطع واليقين؛ فقال: (ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها؛ أعني من أفاضلهم وبُلغائهم؛ فعلى ما ظهر لنا وخُيل إلينا لم نجد لغةً كالعربية؛ وذلك لأنها أوسع مناهج، وألطف مخارج، وأعلى مدارج، وحروفها أتمّ، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريضها أشمل، ولها هذا "النحو" [يعني علم النحو] الذي حِصته منها حِصة "المنطق" من العَقل، وهذه خاصية ما حازتها لغةٌ؛ على ما قرع آذاننا، وصَحِب أذهاننا ، من كلام أجناس الناس، وعلى ما تُرجم لنا أيضا من ذلك)[1].

ونحن في هذا البحث سوف نبني الكلام في اشتراطات المقارنة على أساس رعاية مقتضيات النسبية والمقاربة فيما تحقق للعرب القدماء من شرطي المقارنة وما لم يتحقق، لاسيما شرط (العلم باللغات وإتقان الألسن) وذلك الإتقان –بطبيعة الحال– مشروط بزمانهم وظروفهم التي تختلف عما عليه زمان غيرهم وحاله.. وفيما يلي تفصيل الشروط وتجلياتها في جهود المقارنات البلاغية العربية مع غيرها:

(١) المقابسات، لأبي حيان: ١٨٥-١٨٦.

الشرط الأول: إتقان لغات البلاغات المقارَنة:

نفترض أنه ليس في البلاغيين القدماء الذين وقفنا على مقارناتهم سوى عدد قليل ممن يتقن لغة أخرى إتقانا يقارب مستوى لغته الأم... هذا ما نتوقعه في ضوء تصريحات أمثال أبي سليمان المنطقي الدالة على أنهم أصدروا مقارناتهم البلاغية بناء على ما نُقل إليهم عن تلك اللغات وبلاغاتها، أو بناء على ما شاع بينهم من أحكام عامة حولها، وأيضا في ضوء اعتذارهم بين الفينة والأخرى عن أنهم بناء على هذا القدر القليل من الاطلاع فإنهم لا يعتبرون أحكامهم مطلقة ولا قطعية.

فهذا الجاحظ كان على جانب من المعرفة العامة باللغات، وبلاغاتها، كما يدل قوله: (درجت أمم الأرض من العرب والعجم على إيثار الإيجاز، وحمد الاختصار، وذم الإكثار والتطويل والتكرار، وكل ما فضل عن المقدار)[1]. إلا أنها تبدوا معرفة سطحية لا مباشرة ولا متعمقة، بدليل قسوته في سلب البلاغة من اللغات سوى العربية، كما سنراه في بعض كلامه،وسيأتي نصه..

إلا أنه ليقين الجاحظ بأهمية الحيازة لمستوى معقول من مستويات المعرفة بلغات الأمم المقارَنة وثقافاتها؛ ولو أقل القليل منه- فقد أشاد بحركة الترجمة بين اللغات وأشار بجهود المترجمين الذين أسهموا في تعريف العرب ببلاغات الأمم،وقرن هذه الإشادة بالتمييز في أعمال المترجمين منا لثقافات والآداب الأخرى، بين ما هو حسن، وما هو أحسن منه، فقال: (وقد نُقلت كتب الهند، وتُرجمت حكم اليونان، وحولت كتب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتُقص شيئا)[2].

(١) رسائل الجاحظ، ١٥١/٢.

(٢) الحيوان، للجاحظ: ٧٥/١.

وفي ملمح يؤكد أهمية المثاقفة البلاغية والأدبية بين العرب وغيرهم ظل الجاحظ يؤكد على أهمية التوسع المعرفي لدى الأديب والبليغ، متجاوزا بذلك فكرة اختصاص العرب بالبيان والبلاغة دون غيرهم، فهم وإن كانوا السباقين -كما يقال- في علوم اللسان والبيان فذلك لن يغني الأديب العربي عن مطلب الاتساع والانفتاح على بلاغات الأمم الأخرى؛ كما يرى الجاحظ، حيث يقول : (ومَن أحب أن يعلو في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب "كاروند" ، فهذه الفُرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها؛ فمن قرأ تلك الكتب عرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم، وعرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة)[1]. وهذا كلام صريح في تشجيع المثاقفة البلاغية للعرب مع غيرهم، وما يترتب على هذه المثاقفات من دراسات مقارنة متعددة الوجوه والاتجاهات.

ثم إنه آنذاك التقى تشجيع الخلفاء مع اهتمام البلاغيين واللغويين والأدباء بالترجمة بكافة أشكالها، العلمية والإبداعية، لا سيما في عهد المأمون الذي عُني بالترجمة أكثر من غيره من خلفاء بني العباس. وشملت الترجمة معظم اللغات المعروفة في زمانهم، مع فضل اعتناء بالترجمة عن اليونانية، كما يقول خليل الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) في كتابه نصرة الثائر على المثل السائر : (وهذه العلوم اشتهرت في أيامهم، خصوصا في زمن المأمون، فإنه رتب الذهب لمن يحل كتب اليونان من اليونانية إلى العربية مثل حنين بن إسحق، وابن بختي شوع وغيرهما)[2].

(١) البيان والتبيين:٣/١٤.

(٢) نصرة الثائر على المثل السائر، لخليل الدين بن أيبك الصفدي: ٤٣.

وإلى جانب اليونانية كانت الرومانية والهندية والفارسية لغات علمية وأدبية أورثت للعرب تراثا جديرا بالاطلاع في نظرهم؛فكانوا يفترضون بمن تصدى للمقارنة آنذاك أن يتقنها.

ولعل الفارسية كانت أيسرها تناولا آنذاك بحكم الاتصال الوثيق بين العرب والفرس، إلا أن هذا الحظ الجيد للثقافة والمعرفة الفارسيتين تضاءل بسبب سيطرة العربية على الفارسية في العصر العباسي حتى في عقر دارها، لكون العربية لغة الدين ولغة السياسة والخلافة آنذاك.

وأيضا فلربما كان من أسباب تراجع الاهتمام بتعلم الفارسية أن المسلمين العرب لما فتحوا تلك البلاد عملوا على تعقب المؤلفات والتراث المجوسي الفارسي الذي زخرت به البلاد قبل الإسلام، فحاربوه وأحرقوا جزءا كبيرا منه، حماية للمسلمين من آثار تلك الديانة الوثنية(١).

ولعله لهذا السبب – أي خفوتوهج الفارسية وتراثها الثقافي في وقت مبكر من الاتصال بين العرب والفرس– شكك الجاحظ في صحة ما نُسب إلى الفرس في وقته من الكلام البليغ والأقوال الدالة على عظم الصنعة في النثر والشعر عند الفرس، حيث قال: (ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل [يعني الفارسية] التي بأيدي الناس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذْ كان مِثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبد الله، وعبد الحميد ، وغيلان، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير)(٢).

فإذا كان هذا حظ الفارسية وهِيَ مَا هِيَ في القرب المكاني والزماني من البلاد الإسلامية وثقافتها– فإن ما سواها من اللغات وبلاغاتها أولى بأن يكون أقل

(١) ينظر : علوم البلاغة عند العرب والفرس: ١٩.

(٢) البيان والتبيين: ٣/٢٩.

حظا منها... سوى ما قُيض لها من عناية الخليفة المأمون بالترجمة ودعم روادها، وهي عناية جاءت متأخرة بعد الفتح الإسلامي بما يقارب القرنين من الزمان.

وبما أن معرفة بلاغيي ذلك الزمن ونقاده وأدبائه كالجاحظ وأبي سليمان المنطقي، وأبي أحمد العسكري ثم أبي هلال العسكري... وأمثالهم باللغات الأخرى وبلاغاتها= كانت معرفة سطحية وغير مباشرة فقد أدت بهم إلى إصدار أحكام مجحفة أحيانا بحق تلك البلاغات.

ومن تلك الأحكام المبنية على ضحالة الاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى قول الجاحظ: (ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما يزدوِج؛ فمَعَنا العلمُ أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل)[1].

ولعل الجاحظ كان متأثرا بغيره في هذه المقولة، أو أنه كان متسامحا فيها غير جاد كل الجد؛ بدليل أنه صرح بمقولات عديدة تنقض عليه حكمه هذا؛ فكأنه يناقض نفسه، ومنها قوله: (الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحِكم والعلم أربعٌ؛ وهي: العرب والهند وفارس والروم)[2]. فقد جعل الأمم الأخرى على قدم المساواة مع العرب في الآداب والحِكم... كما أنه أشاد ببعض فصحاء العجم وساواهم بفطاحلة البيان العرب، فأشاد بموسى بن سيار الأسواري، وهو فارسي، وكان أديبا قصاصا، قال الجاحظ فيه: (وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه،

(١) البيان والتبيين: ٣/٢٩.

(٢) البيان والتبيين: ١/٣٨٤.

والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية؛ فلا يَدرى بأي لسان هو أبْيَن)[1].

ولم يكن الجاحظ وحيد الطريق في جنوح الحكم والتصور المبني على ضعف المعرفة باللغات والبلاغات الأخرى معرفة مباشرة، أو المبني على التحيز والتعصب للعربية، بل وجد آخرون مثله، وربما كانوا -أو كثير منهم- قد تأثروا به، أو ربما تطابقوا من غير قصد مع الجاحظ في هذا المقارنات المتحيزة، أو سبقوه إليها، إلى جانب أنهم وافقوا الجاحظ -قصدا أو مصادفة أيضا- في تناقض الحكم على بلاغات الأمم الأخرى بين التزكية مرة والاستهانة أخرى.

وبناء عليه اضطر بعض من هؤلاء العلماء إلى البوح بعدم الثقة بما ترشح لهم من نتائج المقارنة بين بلاغة العرب وبلاغة العجم؛ فبدا جليا أنهم لم يكونوا راضين تمام الرضا عما قالوه -أو قيل لهم- في شأنها، ومنهم من اعترف بذلك فتملص من تبعات حكمه ضد بلاغات الأمم الأخرى، كابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) حيث حكى عن بعض اللغويين أنه أحصى أسماء السيف والأسد في لغة العرب؛ فجاءت في أوراق كثيرة = ثم استنتج ابن سنان من ذلك أن (لغة العرب -مع السعة والكثرة- أخصر اللغات في إيصال المعاني وفي النقل إليها؛ فليس كلامٌ يُنقل إلى لغة العرب إلا ويجيء الثاني أخصر من الأول، مع سلامة المعاني)...وأضاف: (وهذا وجه يمكن ذِكر مثله؛ ويجب أن يُتأمل ويُنظر فيه؛ لأني لا أعرف لغةً سوى العربية!، وإنما ذهبتُ إليه ظنا!، وحدْسا!، وقد تُصرِّف في هذه اللغة -[يعني العربية]- بما لم أظنه تصرف في غيرها من اللغات)[2].

(١) البيان والتبيين: ٣٦٨/١.

(٢) سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي:٤١.

فمن الواضح وعي ابن سنان بشرط إتقان اللغات لتصح المقارنة وتكتمل بينها في البلاغة وغيرها، وأنه لا يكفي في ذلك الظن والحدس، بل ولا إخبار الآخرين له بذلك حتى لو كانوا من العارفين بتلك اللغات، كأبي داود المطران الذي كان عارفا باللغتين؛ العربية والسريانية، وهو الذي قال لابن سنان -كما حكاه هو عنه-: (إنه إذا نَقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قَبُحت وخسَّت، وإذا نَقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوة وحسنا)... إلا أن ابن سنان ظل على تردده في تبني رأي لم يفحصه بنفسه(١).

هذا الوعي العلمي الموضوعي الذي مَثله كلام ابن سنان هنا شكل قاعدة علمية أساسية للبلاغة المقارنة ، بحيث سنجد آثارها عند بلاغيين عرب وفرس مثلا،حيث سعوا لأن يكون إتقانهم للغتين وافيا بالقدر الذي يسمح لهم بالإفادة والاستفادة بين لغتهم واللغة الأخرى.

ولربما كان منهم أبو هلال العسكري، الذي يبدو أنه كان من العارفين بالفارسية معرفة تؤهله للمقارنة بين بلاغتها وبلاغة لغته العربية. وتتضح منزلة أبي هلال في تلك المعرفة من خلال مقارناته البلاغية الجريئة، التي ضمنها نصوصا من اللغتين، وبدا في صورة الواثق بمعرفته وهو يقارن بينهما؛ كما في ذلك الفصل الذي عقده لـ(بيان جُمل من بلاغات العجم)، وسأورد اقتباسات منه في موضع تال من هذا البحث، إلا أنني أورد -ههنا- ما يدل على قوة اطلاع أبي هلال-وربما إتقانه-على الفارسية، حيث قال: (وللفرس أمثال مِثل أمثال العرب معنىً وصنعةً، وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي ، من ذلك قول العرب (وَلَدُك من دَمَّي عَقبيك) وقول الفرس (هرك نزاد نرود) واللفظ الفارسي في هذا أفصح من اللفظ العربي وأحسن ، وقولهم (كشند ميد) مِثل قول

(١) ينظر :سر الفصاحة: ٤١.

العربي (مَن يَسمع يخل) سواءً في المعنى، والفارسي أقل حروفا ، وقولهم (أصيد بركة خورده) وليس للعرب في معنى هذا المثل شيء ومعناه: (المأمول خير من المأكول)، ولا يُعبر عنه بكلام عربي أقل حروفا مما ذكرته؛ ومع ذلك فإن حروف تفسيره بالعربية ضِعفا حروفه بالفارسية ، وقد جاء عن بعضهم في معنى هذا المثل: (انتظار الحاجة خير لك من قضائها) وقد خالفهم الفرس في مثل واحد وهو قولهم (به شاه أشناه نرود همدوره) والعرب تقول: (جاوِر بحرا أو مَلِكا))[1].

وفيما عدا هذا المستوى العالي من المعرفة باللغة الأخرى والاطلاع الذي يجب أن يتمتع به المقارن فليس من طبيعة العِلم ومنهجه أن يعتمد في المقارنة على برهان ناقص لإصدار حكم قاطع ؛ ولذا نَستغرب كثيرا أن الجاحظ اعتمد على معرفة ناقصة في إثبات تفوق العرب في بلاغتها على بلاغة العجم، في قوله:

(إنك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخُلص، ومعدن الفصاحة التامة؛ ووقفته على شاعر مُفلق أو خطيب مصقع عَلِمَ أن الذي قلتُ هو الحق، وأَبْصَرَ الشاهد عيانا)، ثم قال" (فهذا فرق مابيننا وبينهم)[2]. وهذا برهان عجيب من الجاحظ؛ ولا يصح الركون لهذا الدليل في تفضيل بلاغة العرب ولسانهم؛ لأن الشعوبي الأعجمي، أو ذو الأصل الأعجمي –الذي افترض الجاحظ أننا سنأخذ بيده ونقوده في بلاد العرب حيث معدن الفصاحة ومنبع البلاغة– قد لا يكون على دراية بالعربية؛ فكيف يتوقع الجاحظ أن ننتظر منه حكمايصح الاعتماد عليه، ولو أدنى اعتماد!.. إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه!.

(١) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري: ٨٩–٩٠.

(٢) البيان والتبيين : ١/٤٠٥.

الشرط الثاني: توفر المعرفة الذوقية بالبلاغات، والقدرة على مراعاتها وتحكيمها عند المقارنة:

من الطبيعي أن يقع اختلاف الأذواق بين الأمم في نواح عدة، أو كثيرة، من الأديب والبلاغي وغيرهما؛بناء على اختلاف الخصائص اللغوية و النفسية والعلمية والدينية للشعوب، واختلاف طبائع البلدان والبيئات..

وقد تنبه كثير من القدماء إلى أثر هذه الاختلافات عند مقارنة بلاغات الأمم، وأوصوا بمراعاة ما تقتضيه وما تتطلبه من الأساليب الملائمة؛ حتى في داخل اللغة الواحدة، فإن بلاغة الخطاب مع جنس من أجناس الشعوب التي دخلت الإسلام قد لا تكون هي نفس البلاغة التي يقتضيها الخطاب مع جنس آخر دخل المجتمع نفسه.

ومن أمثلة الإشارة إلى هذا الاختلاف الأممي المتنوع الأسباب وأثره في الأساليب البلاغية ما ذكره الجاحظ من تمييز القرآن الكريم في خطابه وأسلوبه بين أصناف المخاطبين، فللعرب في القرآن أسلوبُ خطاب، ولغيرهم أسلوب خطاب آخر...وهذا من دلائل إعجاز القرآن وبيانه، ومن خلال هذه المقارنة أشاد الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بطبيعة الإنسان العربي الميالة للإيجاز والاختصار، وبعقليته سريعة التشرب لما يُلقى إليه من إشارات الكلام وإيحاءات الدلالة، قال: (ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام)[1].

ولسنا بصدد تأييد هذه الملاحظة أو التفصيل في احتمالاتها وتوجيهاتها... وإنما القصد هو التنويه بإشكالية هامة قد تعترض الباحث المقارِن بين البلاغات، فإن هو لم يراعها تكون مقارنته مختلة النتائج، بسبب اختلال المقدمات؛ وهي

(١) الحيوان ، للجاحظ: ٩٤/١، ونقله عنه وفصله أبو هلال في الصناعتين: ١٩٣.

إشكالية اختلاف أذواق الأمم التي بَنَت على أساسها أساليبها ومعاييرها ونصوصها وبلاغتها.

فإذا كانت هذه الفروق هي مما فرض نفسه حتى في داخل اللغة الواحدة وبين أجناس الخطاب فيها ومستوياته وخصائصه = فإن هذه الفروق ستكون – بطبيعة الحال– أكثر وضوحا وأبرز تحديدا عند المقارنة بين بلاغات اللغات... ومما يؤيد أهمية هذا الشرط مقولة للجاحظ تشير إليه، وهي قوله: (كل كلامٍ للفُرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طُول فِكرة وعن اجتهادٍ وخلوةٍ، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني عِلم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني؛ حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم. وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إحالة فكر، ولا استعانة؛ وإنما هو أن يصرف وهْمه إلى الكلام فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا).[1]

كما يشير أبو أحمد العسكري (ت٣٨٢هـ) إلى ما هو شبيه بهذا الفرق الذوقي بين بلاغة العرب والعجم، وأن العرب لم يكونوا محتاجين في بلاغتهم إلى وضع القواعد وسن الطرق وتأليف الكتب؛ لا يحتاجون أيًّا من ذلك لينظموا شعرا بديعا، أو يلقوا خطبة عصماء، وأما العجم فقد احتاجوا لمن يختط لهم الطريق وينير لهم المسالك إلى الكلام البليغ، قال ذلك بعد أن ساق جملة من بلاغات العجم، وعقب عليها بقوله: (ومن عجيب ما فيه، وبُعد تنافيه، أن يأتي بدوي أمِّي جلف، فيبتدع بفكره وقريحته المعنى البديع، والتشبيه المصيب، والسؤال اللطيف، والمدح

(١) البيان والتبيين، للجاحظ: ١/٤٠٤-٤٠٥.

الشريف، والغزل الرقيق، بنظمٍ عجيب، وقوافٍ منتظمة، وأوزان تامة، وأقسام مُعدَّلة، وألفاظ فصيحة عذبة)[١].

الشرط الثالث: الإنصاف والموضوعية في المقارنة:

تلك الملاحظات والتلميحات الصادرة عن بعض كبار البلاغيين العرب، كالجاحظ، والتي تضمنت -أحيانا- المجازفة بالانتقاص من شأن بلاغات الأمم الأخرى= تلقفتها ألسن وأقلام أخرى، ونسجت على منوالها، مع علمنا باختلال شرط الإتقان للغات الأخرى المقارنة مما يعني فساد الحكم عليها عند من حكموا بذلك أو نَقصه على أقل تقدير. وممن تلقف تلك المقولات العالم اللغوي المعروف أبو الفتح عثمان بن جِني (ت٣٩٢هـ) حيث قال: (لو أحسَّت العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة وما فيها من الغموض والرقة والدقة لاعتذرتْ من اعترافها بلغتها، ولا رَفعتْ رؤوسها باستحسانها وتقديمها)[٢]!.

وقد جوبهت هذه المقارنات المنحازة بلا علم، بمقارنات أخرى تحمل نبرة منصفة لبلاغات الأمم، من قبل بلاغيين آخرين، كأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، الذي (لم يقنع بأن عَدَّ العجم مساوين للعرب في البلاغة، حتى رجح فصاحتهم أحيانا)[٣]، وفي هذا المعنى قال أبو هلال: (العجم والعرب في البلاغة سواء؛ فمن تعلم البلاغة بلغةٍ من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى، أمْكَنَه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى... وللفُرس مثل أمثال العرب معنىً وصنعةً، وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي)[٤]. وقوله (فمن تعلم البلاغة بلغة)

(١) التفضيل بين بلاغة العرب والعجم: ١١٥.

(٢) الخصائص، لابن جني: ٢٤٢/١.

(٣) علوم البلاغة عند العرب والفرس: ٥٦.

(٤) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري: ٨٩/٢.

..إلخ، يشير إلى أن البلاغة في أصلها مدلولات ومعان ومضامين، وهذه تتساوى فيها الأمم ، ثم تتحول إلى تراكيب وصياغات، وهذه ما تختلف فيها الأمم، وهذا يزكي النظرة المعنوية للبلاغة عند أبي هلال العسكري.

والأحرى أن يكون أبو هلال متأثرا في هذا الشأن بأستاذه أبي أحمد العسكري (ت ٣٨٢هـ)، الذي كان يقول في كتابه "التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم" : (البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة، ولا على مَلك دون سُوقة، ولا على لسان دون لسان)... إلى أن يقول: (ومما يدل على أن البلاغة مشتركة ما أخبرنا به أبو بكر بن دريد، قال: قيل ليوناني: ما لبلاغة؟ فقال... وقيل لبعض الفرس... وقيل لهندي...)[١].

وتحدث عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) بنفس اللغة العلمية المنصفة لبلاغات الأمم الأخرى، وذلك عند إجرائه بعض المقارنات البلاغية؛ ومنها أنه أبطل ما ذهب إليه القائلون بأن المجاز من اختصاص لغة العرب ومزية خاصة بها، وفند ما قيل من أنه بسبب هذه المزية (بانت هذه اللغة عن سائر اللغات)[٢]. حيث استحضر عبد القاهر في رده لغة العالم المنصف المتزن أمام هذا الخلاف، وهذا مطلب في المقارنة العلمية وشرط في البلاغة وغيرها، فقال: (قولك "رأيت أسدا" تريد وصف الرجل بالشجاعة، وتشبيهه بالأسد على المبالغة= أمرٌ يستوي فيه العربي والعجمي، وتجده في كل جيل، وتسمعه من كل قَبيل، كما أن قولنا: "زيد كالأسد"؛ على التصريح بالتشبيه، كذلك. فلا يُمكن أن يُدعى أنَّا إذا استعملنا هذا النحو من

(١) ينظر : التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم: ١١٣-١١٤.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ٤٥٥/١.

الاستعارة فقد عَمدنا إلى طريقة في المعقولات لا يعرفها غير العرب، أو لم تتفق لمن سواهم)[1].

وقد كان من المفترض والمتوقع أن يجتث كلام هؤلاء العلماء والبلاغيين الكبار أصول التعصب المنافي للمنهج العلمي عند المقارنة، وأن توضع الأمور في نصابها فيما يخص حق الأمم الأخرى في البلاغة والفصاحة، إلا أن نبرة الانحياز عادت لتطل من جديد عند بلاغيين تالين، وربما تسبب كلامهم في تضاؤل فرص الاستفادة من ثقافات الأمم الأخرى وبلاغاتها في التعبير عن حياتها وحكمتها...

وزاد ذلك في تأكيد الحواجز النفسية بين العرب وسائر الأمم في ذلك الزمن، وهذا أحد العوامل التي ألقت بظلالها على علاقة العرب بغيرهم، وأثرت -لاسيما في عصور التراجع الحضاري العربي- على موقف بعض من العرب تجاه الحضارات الأخرى واستفادتهم منها.

ويتضح عمق أساسات هذه التحيز بقراءة قول ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): (للغة العربية مزية على غيرها؛ لما فيها من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها)[2]. وعلى ما في هذا الكلام من المجازفة والانحياز بلا دليل عند ابن الأثير؛ فقد كان أقل -مع كل ذلك- حدة ومبالغة من قول يحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ): ...(الفصاحة والبلاغة مخصوصان بهذا اللسان العربي، دون سائر اللغات؛ من الفارسية والرومية والتركية، فلا مدخل لهذه الألسنة في فصاحة أو بلاغة)[3]!.

---

(١) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني: ٣٤.

(٢) المثل السائر، لابن الأثير: ١/٨٥.

(٣) الطراز للعلوي: ٥٦.

ولعلنا أن نتساءل: كيف يستقيم ما زعمه ابن الأثير من اختصاص العربية بالتوسعات على النحو الذي لا مثيل له فيما سواها= مع قوله في موضع آخر من كتابه: (واعلم أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا في غير اللغة العربية، ووجدتُّهما كثيرا في اللغة السريانية؛ فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منهما بالكثير. ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل: إن الملك يختلف إلى امرأتك فهجرها لذلك وترك فراشها فأخبرت كسرى فدعاه وقال له: قد بلغني أن لك عينا عذبة وأنك لا تشرب منها فما سبب ذلك؟ قال: أيها الملك بلغني أن الأسد يردها فخِفته. فاستحسن كسرى منه هذا الكلام وأسنى عطاءه)[1]. فهذا كلام ابن الأثير ذاته، وهو ينقض بلك صراحة كلامه السابق في سلب الأمم الأخرى كل (التوسعات)، وزعمه أنها (لا توجد في لغة أخرى)سوى العربية.

وعقلية العالِم من حيث القدرة على الإنصاف والموضوعية في الحكم تتشكل في ضوء مكونات ثقافية أو اجتماعية أو حضارية مختلفة، أو خليطا من كل ذلك... ولعل ابن خلدون يكون مثال جيدا للتوجه المنصف المبني على سعة الاطلاع ورحابة المعرفة والانفتاح المعرفي والعقلي والثقافي؛ بذلك القدر التي تدل عليها مضامين مؤلفاته، لا سيما مقدمته لكتابه التاريخي، يقول ابن خلدون في هذه (المقدمة): (اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة؛ سواء كانت عربية أو أعجمية، وقد كان في الفرس شعراء، وفي يونان كذلك)[2].

(١) المثل السائر : ٢/ ٢٠٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٥٨٥.

ملخص البحث

تأكد بهذا البحث أمران؛ أولهما: وجود مثاقفة بلاغية بين العرب والعجم في وقت مبكر من تاريخ هذا العلم عند العرب، وأنها كانت شاملة ومتعددة المسارات نظريا وتطبيقيا، وثانيهما: وجود (بلاغة عربية مقارنة)، ممتدة الجذور عند العرب في عصور التأليف المتقدمة، وأن المؤلفين كانوا على وعي بشروط المقارنة وضوابط مصداقيتها؛ مع أنه لم يتحقق لأكثرهم –ممن ورد ذكره في هذا البحث– ما اشترطوه للمقارنة العادلة من شروط،بالصورة المرضي عنها في نظرهم، وفي نظرنا أيضا.

ولقد أيد البحث فكرة تأثر البلاغة العربية بالبلاغات السابقة عليها تأثُّرا بَيِّنا، لكن ليس على بِقدر ما وصفه الدكتور طه حسين بأنه كان تعليما للعرب كيفية البلاغة!، وإنما هو بقدر تعليمهم كيفية البحث في البلاغة ووضع قواعدها،واستنباط أحكامها.. وأن هذا التعليم أيضا لم يكن إلا كالشرارة التي تشعل الضوء، حيث بعدها استقل العرب ببلاغتهم وقواعدهم وشواهدهم؛ على أنه لم يكن استقلالا محمودا على كل حال، إذ لو استمر تأثرهم وتأثيرهم لربما كانت حال بلاغة القدماء أفضل وأتم مما وصلتنا، وما من عيب في الاتصال العلمي بين شعوب الأرض، فالعلم حق مشاع للإنسانية تتوالده وتتوارثه.

كما أن هذا البحث أثبت حقيقة تأثير العربية في البلاغات الأخرى تأثير قويا، امتد من أول أعجمي قرأ القرآن وعرفه، مرورا بتأثير المؤلفات البلاغية العربية في المؤلفين الفرس، ثم في الأوربيين، وغيرهم، حتى وقتنا الحاضر.

والله الموفق ،،،،

Research Summary

Make sure this research are two things; first: the presence of acculturation rhetorical between Arabs and non-Arabs in the early history of this science among the Arabs, and it was a comprehensive and multi-pronged theoretical and practical, and the second: the existence of (Arab eloquence compared), deep-rooted among the Arabs in the eras advanced authoring, and the authors were aware of the terms of comparison and controls its credibility; it has not been achieved with the most -mmn mentioned in this Seat- what Achtrtoh comparable fair conditions, satisfactory image it in their eyes, and in our view, too.

The research supported the idea influenced by Arabic rhetoric previous communications by the affected Pena, but not as much as what he described Dr. Taha Hussein that he was educated to the Arabs how rhetoric !, but it is as much as teaching them how to look at the rhetoric and put its bases, and the development of its provisions .. and that this education also did not not only Kalshrarh that spark of light, where he then boarded the Arabs Bblagthm and their bases and Hoahidhm; he was not independent commendable if at all, as if affected and their influence lasted for perhaps the case of the eloquence of the ancients best and did what we received, and no defect in the scientific communication between the peoples of the earth, science Commons right of humanity Ttwaldh and legacy.

Also, this research has proved the fact that the Arab influence in the strong influence of other communications, extending from the first foreigner read the Koran and knew, through the influence of literature rhetorical Arab authors in the Persians, then the Europeans, and others, up to the present.

مصادر البحث ومراجعه

-الأدب المقارن، د-محمد غنيمي هلال، دار العودة ، ودار الثقافة، بيروت د. ت.

-أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، ط: دار المدني بجدة والقاهرة ١٩٩١م.

-إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين، تأليف: اشراف بدوي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

-البلاغة عند السكاكي، د- أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٤م.

-البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ، بيروت . د. ت.

-التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم، لأبي أحمد العسكري، تحقيق: د. حمد بن ناصر الدخيل. إصدار نادي القصيم الأدبي، المملكة العربية السعودية ١٤١٨هـ.

-الحيوان ، للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ، بيروت ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.

-الخصائص، لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

-ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، دار الجيل، بيروت، د ت.

-رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٩م.

-سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، تحقيق: عب المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ١٩٦٩م

١-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين. دار الكتب العملية، بيروت ١٩٩٥م.

-علم البديع: د- عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.

-علوم البلاغة عند العرب والفرس، الدكتور إحسان صادق سعيد، المستشارية الثقافية الإيرانية، دمشق ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقزان. دار المعرفة، بيروت ١٩٨٨م.

-كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط/ المكتبة العصرية، بيروت١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٠م.

-مجلة مجمع اللغة العربية، بالقاهرة، عدد ٩٥، بحث د. بنشريفة: بعنوان (التأثير المتبادل بين الأمثال العربية والأمثال الأسبانية).

-مقدمة ابن خلدون، تحقيق : درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٥م.المقابسات، لأبي حيان، تحقيق حسن السندوبي، دار المعارف، تونس ١٩٩١م.

-مقدمة عبد الرحمن بدوي للترجمة القديمة لكتاب الخطابة لأرسطو، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت- ١٩٧٩م.

-نصرة الثائر على المثل السائر، لخليل الدين بن أيبك الصفدي. دار الكتب، بيروت- د. ت.

-نقد النثر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر . طبع : دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ١٤٠٢ هـ

-نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،لفخر الدين الرازي، تحقيق: الدكتور: أحمد حجازي السقا، نشر المكتب الثقافي، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٨٩م.